دولة المماليك البحرية

نشأتها وفضلها في

القضاء على الصليبيين

د. شفيق جاسر أحمد محمود

كل دارس للتاريخ الإسلامي عبر عصوره المختلفة، يعلم أنه ما من زمن توحدت فيه قلوب المسلمين وبلادهم، واتخذوا الذود عن الإسلام وبلاد الإسلام هدفاً لهم، والجهاد في سبيل الله وسيلة لتحقيق هذا الهدف، إلا ومنّ الله عليهم بنصره، مهما بلغت قوة أعدائهم.

ومن الأمثلة الرائعة على ذلك ما ابتلي به المسلمون في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، من تعرضهم لخطرين داهمين، هما: خطر الاجتياح المغولي

القادم من الشرق، والخطر القديم المتجدد، وأقصد به الخطر الصليبي، الذي انتعشت آمال قادته بما أصاب المسلمين من ضعف وفرقة في نهاية العصر الأيوبي، وبظهور الخطر المغولي المذكور. هبَّ الصليبيون لمهاجمة المسلمين فيما اعتقدوا أنه مقتلهم، فهاجموا مصر، قلب الإسلام ومنبع الجيوش الكبيرة التي هددتهم دائمًا. وهذه حقيقة أدركها أسلافهم فحاولوا مرارا دحر مصر أو تحييدها.

لهذا قرر لويس التاسع ملك فرنس[1] وقائد الحملة الصليبية السابعة المتعصب أن يقضي على مصر، وأن يتخذها طريقا إلى بيت المقدس. ولكن الله خيب ظنه وقيض للمسلمين عصبة من الرجال الأشداء هم (المماليك)، الذين تولوا السلطة في مصر أولا ثم امتد سلطانهم إلى الشام والحجاز وغيرها، فأقاموا دولة دامت قرابة ثلاثة قرون، تصدوا خلالها للمغول والصليبيين، وخلصوا المسلمين من شرهم

من هم المماليك؟

يطلق اسم (المماليك) اصطلاحا على أولئك الرقيق - الأبيض غالبا - الذين درج حكام المسلمين على استحضارهم من أقطار مختلفة، وتربيتهم تربية خاصة، تجعل منهم محاربين أشداء.

وكلمة(مماليك) [2]: جمع مملوك، وهو الرقيق الأبيض الذي يباع ويشترى، وهي اسم مفعول من الفعل (ملك)، والمملوك هو عبد مالكه، ولكنه يختلف

عن العبد الذي بمعنى الخادم[٣]، كما أن كلمة (مماليك) تختلف أيضا عن كلمة (موالي)[٤] التي مفردها مولى والتي تعني - اصطلاحا - عند المؤرخين: كل من أسلم من غير العرب، فالمولى قد يكون أصل بعضهم من أسرى الحروب الذين استرقوا ثم أعتقوا، أو من أهل البلاد المفتوحة الذين انضموا إلى العرب فصاروا موالي بالحلف والموالاة.

والرق وأسبابه قديم قدم الإنسان، عرفته الأمم الغابرة من سكان ما بين النهرين، ووادي النيل، واليونان، والرومان، والعرب في الجزيرة العربية، واقرته معظم الديانات كاليهودية والنصرانية، أما الإسلام فإنه حض على الغائه وعلى تحرير الأرقاء وحسن معاملتهم، كما نظم العلاقة بينهم وبين سادتهم[٥].

وقد اقتنى كثير من الحكام المسلمين مثل هؤلاء المماليك، ولكن أعدادهم تكاثرت في أواخر عهد الأيوبيين في مصر والشام حيث ضعف شأنهم بعد وفاة صلاح الدين رحمه الله عام ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، وانقسام الدولة بين أبناء الأسرة الأيوبية، الذين لقبوا أنفسهم بالملوك في كل من مصر، ودمشق، وحلب، والكرك، وبعلبك، وحمص، وحماة. ونشبت بينهم حروب وخلافات متعددة، بالإضافة إلى ما نشب بينهم من جهة وبين أهل البلاد الآخرين وأبناء البيوتات في الشام من نزاعات مستمرة[٦]. مما اضطر كلا منهم للبحث عن عصبة تحميه وقت الشدة، وتساعده في صد أعدائه، فكان الإكثار من المماليك (الرقيق الأبيض) خير وسيلة لتحقيق ذلك. وكان أشد الأيوبيين اهتماما بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ - ١٢٥٠م) الذي بنى لهم المعسكرات في جزيرة الروضة سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤١م) وسماهم بالمماليك البحرية[٧] الصالحية، وسكن معهم في القلعة، ورتب جماعة منهم حول دهليزه، واعتمد عليهم في صد غزوة لويس التاسع عن مصر.

ميزات المماليك:

امتاز هؤلاء المماليك بأنهم قد أعدوا إعدادا ممتازا ليكونوا جنودا وحكاما وسياسيين، يتولون الوظائف العليا في الدولة . ولشعورهم بهذا التفوق وشعورهم بغربتهم، فقد عاشوا كطائفة شبه منفصلة عمن حولهم من السكان، كما احتكروا الجندية وجعلوها أحيانا وقفا عليهم خصوصا على المماليك الصغار الذين كانوا يجلبون حديثا، حتى إنهم لم يسمحوا لأبنائهم بالانخراط فيها بل قصورهم على الوظائف الإدارية والكتابية .

وبرغم اختلاف أصولهم وانقسامهم حسب خشداشياتهم وسادتهم إلى أحزاب متطاحنة، فإنهم كانوا يجتمعون ويتماسكون لمواجهة الأخطار المشتركة . خاصة أمام العناصر العربية أو المغول أو الصليبيين .

وكانوا يحرصون على الظهور بالصلاح والتقوى، ويقومون ببناء العمائر الدينية من مساجد وتكايا ومدارس[٨].

ولم يكونوا ليتحرجوا من الانتساب إلى مشتريهم الأول أو أستاذهم مثل الصالحي، والمعزي، أو يلحقون بأسمائهم ما يدل على أثمانهم التي بيعوا بها مثل الألفى[٩].

وكان المملوك شديد الوفاء لسيده أو أستاذه أو رابطته مع زملائه الذين تربوا لدى سيد واحد (الخشداشية)[١٠].

تأسيس دولة المماليك البحرية

بوفاة الملك الصالح أيوب، أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر، التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا، تولى السلطنة من بعده ابنه ثور انشاه، وذلك بفضل حنكة زوجة أبيه شجر الدر [١١]، ولكن ثورا نشاه ل يلبث أن مات مقتولا من قبل مماليك أبيه بعد أن شهد هزيمة الصليبيين فخلفته زوجة أبيه المذكورة، وذلك في شهر صفر من عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠) في ذروة احتفال مصر بهزيمة لويس التاسع.

وقد عين المماليك أحدهم وهو عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني اتابكا للجند. ليساعد السلطانة الجديدة التي لم يدم حكمها سوى ثمانين يوم [١٢]، وذلك أن احتجاج الناس على تولي امرأة للسلطانة، اضطر المماليك إلى تزويجها من الاتابك عز الدين المذكور، وإلى تنازلها عن السلطنة له.

بدأ عز الدين أيبك عهده بالتخلص من منافسيه من المماليك، ثم استعان بالخليفة العباسي المستعصم بالله، حيث نصب نفسه نائبا له على مصر [١٣]، وحاول الاستئثار بالحكم دون زوجته شجر الدر مما دفعها للتآمر عليه وقتله عام ٦٥٥هـ (١٢٥٧م).

وعندما علم مماليك المعزية بما فعلته شجر الدر، قاموا بقتلها بالتعاون مع ابن سيدهم المقتول علي بن معز الدين أيبك الذي نصبوه سلطانا، ونصبوا الأمير قطز اتابكا له، ولكن قطز لم يلبث أن عزل السلطان الطفل وأعلن نفسه سلطانا وذلك في عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٧م) مستغلا في ذلك ظهور الخطر المغولي وشعور الناس بحاجتهم إلى سلطان قوي ليتمكن من صد هذا الخطر الداهم.

ولم يخيب قطز ظن المسلمين به فقد بادر بإعداد الجيوش، وتوجه مسرعا نحو الشام، والتقى بالجيش المغولي في عين جالوت في رمضان من عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وهزمهم هزيمة ساحقة وردهم عن الشام بعد أن كانوا قد استولوا على بغداد وأزالوا الخلافة العباسية ثم استولوا على معظم بلاد الشام وهددوا باجتياح مصر.

وفي طريق عودته إلى مصر، تآمر عليه خصومه من المماليك، بزعامة القائد بيبرس أحد أشهر قادته، فقتلوه وولوا عليهم بيبرس سلطانا[١٤].

ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك لما قام به من أعمال وتنظيمات وعمران، وكان من أهم أعماله أحياؤه الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) بعد أن قضى عليها التتار في بغداد. مما أكسبه سلطة شرعية مدعومة بموافقة الخليفة العباسي، كما استن نظام ولاية العهد في أسرته بتعيين ابنه السعيد بركه خان والعادل بدر الدين سلامش، الذي اغتصب قلاوون عرشه فيما بعد سنة ٦٧٩هـ[١٥]، وحفر الترع، وأصلح الحصون، وأسس المعاهد، وبنى المساجد، وكان حاكما مستبدا مستنيرا، كما قوى الجيش واستحضر أعدادا كبيرة من المماليك، وكرس همته في محاربة الصليبيين. ولذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية في مصر، وذلك قبل أن يتوفى في السابع والعشرين من محرم عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) في دمشق وهو عائد من وقعة قيسارية.

وتتابع سلاطين المماليك البحرية على الحكم حتى عام ٧٨٣هـ (١٣٨٢م)[١٦] ثم خلفهم على الحكم سلاطين دولة المماليك البرجية ٧٨٤هـ-٩٢٣هـ (١٣٨٢-١٥١٧م)[١٧].

جهاد المماليك البحرية ضد الصليبيين :

لم يبق من الأراضي الاسلامية تحت حكم الصليبيين سوى شريط ساحلي يمتد على محاذاة البحر الأبيض المتوسط من ناحية الشرق، يضيق أو يتسع باختلاف الظروف والأزمنة ، وذلك لأن الصليبيين حتى في عنفوان قوتهم ، لم يتمكنوا من التوغل في داخل بلاد الشام، فبقيت حلب وحماة وحمص ودمشق بعيدة عن متناولهم [١٨] . وبفقدهم المبكر لإمارة الرها ظلوا محاطين بالمسلمين من الشمال والشرق والجنوب، لا يربطهم بأوروبا، مصدر قوتهم وأمارتي طرابلس وأنطاكيا، ومدينة عكا التي أضحت مقرا لمملكة بيت المقدس بعد أن استرد المسلمون القدس .

لهذا فبعد أن باءت بالفشل حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر المسماة بالحملة السابعة، خرج هذا الملك مذموما مدحورا خاسرا، فاشلا في تحقيق أحلامه في استرداد بيت المقدس عن طريق مصر، وغادر دمياط متوجها نحو قبرص، بعد أن فك المماليك أسره، مقابل فدية كبيرة وشروط مذلة .

ثم لم يلبث أن غادر قبرص متوجها نحو عكا، التي كان حاكمها يوحنا، شقيق ماري، إمبراطورة القسطنطينية، وزوجة الإمبراطور يلدويك الثاني، ومنها أخذ يعمل على تحقيق حلمه الذي لم يفارقه رغم كل النكبات، بل عاش معه حتى مات في تونس وهو يقود الحملة الصليبية الثامنة .

استغل هذا الملك فرصة النزاع الذي شب بين المماليك البحرية الذين استولوا على السلطة في مصر، بعد مقتل تورانشاه بن الملك الصالح أيوب وبين بقايا الأيوبيين في الشام الذين رأوا في ذلك ضياعا لجزء هام من أملاك الأسرة الأيوبية، فعارضوا ذلك بشدة وعلى رأسهم السلطان الناصر يوسف صاحب حلب

ودمشق، فصار الملك لويس يساوم كلا الجانبين ـ الأيوبيين والمماليك ـ ويعدهما بالمساعدة حتى اتفق أخيرا مع السلطان معز الدين أيبك على أن يطلق المماليك عددا كبيرا من الأسرى الصليبيين، وعلى إعادة رؤوس الفرنجة المعلقة حول أسوار القاهرة منذ وقعة غزة، وأن يتنازل المماليك عن النصف الثاني من الفدية المفروضة على لويس التاسع، وتعهدوا بإعادة بيت المقدس إلى الصليبيين، وذلك كله مقابل أن يقف الملك لويس إلى جانبهم في حربهم ضد الناصر يوسف صاحب الشام واتفق على «أن تكون هذه الاتفاقية خمسة عشر عاما»[١٩].

هذا ولم تشر المصادر الإسلامية إلى هذه الاتفاقية غير ما أورده العيني عندما قال: «ومال الجيش المصري بالفرنج، ووعدوهم أن يسلموا إليهم بيت المقدس ـ إن نصروهم على الشاميين ـ وكانت قد اشتدت الحرب بينهم»[٢٠] ورغم شعور الإنسان بالأسى والأسف لهذه المعاهدة، إلا أن من يعرف المماليك يوقن أنهم لم يكونوا معنيين بتنفيذ بعض بنودها، وخصوصا ما يتعلق منها بإعادة القدس إلى الصليبيين، أو تسليمهم ما هو غرب نهر الأردن، وأنهم كانوا يرون فيها خدعة تكتيكية لكسب الصليبيين إلى جانبهم أو إبقائهم على الحياد، فباشروا أولا في تنفيذ بعض البنود كدليل على مصداقيتهم، فأخلوا سبيل باقي أسرى الإفرنج، وتنازلوا عن بقية الفدية المتبقية والبالغة حوالي ربع مليون جنيه ذهبي مصري، وأعادوا رؤوس قتلى الفرنج التي كانت معلقة على أسوار القاهرة منذ واقعة غزة[٢١].

وعليه توجه لويس التاسع من جانبه بقواته من قيسارية إلى يافا، وانتظر وصول المماليك للأنضمام إليه لمحاربة الناصر يوسف، ولكن الملك الناصر

يوسف أرسل جيشا رابط في غزة ليحول دون اجتماع جيوش الصليبيين والمماليك[٢٢]، مما أفسد عليهم خطتهم ، وأخيرا تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله فسارع إلى التوسط بين الأيوبيين والمماليك فجنب بذلك القدس من السقوط مرة أخرى بأيدي الصليبيين [٢٣]، كما جنب المسلمين سفك دماء بعضهم خصوصا وأن الخطر المغولي قد أصبح على الأبواب.

ومع ذلك فإن لويس التاسع لم يفقد الأمل ، فاستغل فترة خلاف المسلمين هذه لإصلاح أحوال الصليبيين، وتحصين مدنهم وحصونهم[٢٤]، فبدأ بتحصين مدينة عكا ، باعتبارها عاصمة الصليبيين ، ومقر إقامته ، ومركز مملكة بيت المقدس ، وأتم تحصينها عام ٦٤٩هـ (١٢٥١م) حتى أصبحت بمنتهى المنعة .

وبعد ذلك توجه لويس إلى قيسارية [٢٥] التي كان يحكمها يوحنا اليمان ، فأمضى عاما في بناء سورها ، وأقام أبراجا عدة ، كما حصن مدينة حيفا[٢٦] وبعدها سار إلى يافا[٢٧] وأقام حولها سورا له ثلاثة أبواب وأربعة وعشرون برجا وخندقان .

كما حصن صيدا[٢٨] وجدد بناء ما هدمته قوات الناصر يوسف عندما أغارت عليها أثناء مهاجمة لويس التاسع لدمياط ، وأحاطها بالأسوار والأبراج والخنادق[٢٩] . وذلك في زمن أميرها جوليان دي باليان .

ومن جهة أخرى حاول الملك لويس التاسع جمع كلمة الصليبيين الذين فرقتهم الخلافات والحروب المحلية ، سواء كانت أسبابها تجارية كالتي كانت تحدث بين البنادقة والبيازنة والجنوية الذين تعرضوا بالمضايقة للويس التاسع نفسه ، لاعتقادهم بأن حملته على مصر أضرت بعلاقتهم معها ، أو دينية كالتي وقعت بين الجماعات الرهبانية العسكرية من داوية واسبتارية ، أو عرقية بين

أجناس السكان المختلفة لأن سكـان الإمارات الصليبية كانوا خليطا متنـافرا من الأمم والأخلاق والأهداف والميول.

كما حـاول تـوطيـد عـلاقاتـه مـع نصـارى الشرق (السريـان المسيحيين)[٣٠] خصوصا الأرمن والموارنة[٣١] حيث كـان للموارنة وضع خـاص لدى الصليبيين منـذ بـدايـة الحروب الصليبية لأنهم لعبـوا دور الحلفـاء للصليبيين، ممـا جعـل الصليبيين يأنسون إليهم، ويدخلونهم تحت حمايتهم[٣٢] ولم ينسوا أنهم شاركوهم مرات عديدة في محاربـة المسلمين، أهمها مشاركتهم في حملة لويـس التاسع على مصر حيث قاتلوا إلى جانبهم في المنصورة[٣٣].

وفي نفس الوقت حاول لويس التاسع اصـلاح الفساد المستشري في الإمارات الصليبية حيث كانـت مرتعا للشرور التي وصفها القاصد الرسـولي في حديث له إلى جونفيـل يبين فيه مقدار الفساد في عكـا «لا يعلم أحد مثلي الآثـام والمعاصي التي ارتكبـت في عكا، ولذا فـإن المولى سينتقم مـن سكانها حتى تغسـل المدينة بدمائهم، وحينئذ سوف يأتي شعب آخر للإقامة فيها»[٣٤] وقد ساعد على هذا الفساد الأخلاقي كون الصليبيين خليطا متنافرا من الناس كما سبق وذكرنا.

وكل هذه الأعمال التي قام بها لويس التاسع أخرت سقوط الإمارات الصليبية مدة ليست قليلـة، وإن كانت لم تلبث الخلافـات أن دبت بعيد مغادرة لـويس للشام عائدا إلى بلاده التـي دبت فيها الفوضى - وليقود بعـد فترة طويلة الحملة الصليبيـة الثامنـة إلى تـونـس حيث تـوفي في بـدايتهـا عام ٦٦٩هـ (١٢٧١م) خصوصـا بين الجماعات الـلاتينية وذلـك عام ١٢٥٨م ودامـت مدة سنتين ممـا أضعف هذه الإمارات وسهل سقوطها.

دور بيبرس في التصدي للصليبيين:

لم ينس بيبرس لحظة عداوة الصليبيين وخطرهم على الشام ومصر، وهو الذي شارك في صدهم عن المنصورة ودمياط، ورأى محاولات لويس التاسع في تأجيج الصراع بين دولة المماليك الحديثة النشأة، والملك الناصر ملك دمشق، ثم تعاونهم مع الخطر الجديد القادم من الشرق، حيث رأوا فيه حليفا طبيعيا ساقه الله لنصرتهم، ألا وهو خطر المغول، فاتصلوا بهم، وعملوا أدلاء لجيوشهم وجواسيس يطلعونهم على عورات المسلمين، بل إن بعضهم قد سمحوا لبعض الحاميات المغولية بالنزول في حصونهم، فوقعوا هم أنفسهم تحت سيطرة ورحمة تلك الجماعات[٣٥]. وكذلك تآمر الصليبيين الدائم مع الحشيشيين الذين كانوا خطرا دائما يهدد كل مجاهد مسلم من زعماء المسلمين.

لهذا قرر بيبرس كما قلده في ذلك خلفاؤه أمثال قلاوون والأشرف خليل، أجتثاث الخطر الصليبي نهائيا من بلاد الشام[٣٦].

وكتمهيد لتحقيق هذا الهدف تحالف بيبرس مع الإمبراطور البيزنطي باليولوجس عدو الصليبيين، حيث عقد معه معاهدة دفاعية عام ٦٦٠ هـ (١٢٦٢م)[٣٧] كما حالف مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) وأعداء المسلمين مغول فارس الوثنيين[٣٨].

وبعد كل هذه الترتيبات توجه بيبرس نحو الشام عام ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) قاصدا إعداد قواته وإعادة توزيعها، تمهيدا لتنفيذ غرضه، وعند ذلك أحس الصليبيون بالخطر الكامن في استعدادات بيبرس ونيته نحوهم، فأرسلوا إليه وفودهم تعرض عليه المسالمة، وتعبر عن حسن نيتها نحوه، ولكنه كان يردها

قائلا: «ردوا ما أخذتموه من البلاد، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فإني لا أقبل غير ذلك» ثم يطردهم من حضرته(٣٩).

وكان من حماس بيبرس في جهاد الصليبيين، أنه لم يخل عام من الأعوام العشرة ما بين ٦٥٩ ـ ٦٦٩هـ (١٢٦١ ـ ١٢٧١م) إلا وكان يشن فيه حربا، ويسترد أرضا من أرض احدى الإمارات الباقية بأيديهم وهي: أنطاكية، وطرابلس، وبعض مملكة القدس.

فبادر عام ٦٦١هـ (١٢٦٣م) بمهاجمة مدينة الناصرة، ثم هاجم بنفسه مدينة عكا الحصينة، ولكنه لم يتمكن من فتحها بسبب ما أقامه فيها لويس التاسع من تحصينات(٤٠).

وفي عام ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) حاصر مدينة قيارية وفتحها رغم حصانتها، ثم غادرها جنوبا إلى قلعة أرسوف البحرية(٤١) التي كانت تحت سيطرة فرسان الاسبتارية المشهورين ببسالتهم، فقاموا بالدفاع المستميت عنها، ولم يمكنوا بيبرس من فتحها فلجأ إلى الحيلة بأن اتفق معهم على أن يستسلموا مقابل تأمين حياتهم، ولكنه قام بنقلهم إلى القاهرة بعد أن أمرهم بهدم قلعتهم(٤٢).

وبعد ذلك قام بفتح يافا وعتليت، ثم استولى في العام التالي على صفد(٤٣) وهونين وتبنين(٤٤)، والرملة(٤٥) مما جعل الإمارات الصليبية في حالة احتضار يائسة دفعتها إلى معاودة استعطاف السلطان بيبرس طالبة مصالحته، أو على الأقل عقد هدنة معه، وفي هذه المرة رأى أن من المناسب إجابة طلبهم، فصالحهم على أساس المناصفة أو المشاركة وذلك بأن يصبح له حصة في غلاتهم ومنتجاتهم(٤٦). ومن أطرف هذه الاتفاقيات بين بيبرس والإمارات الصليبية تلك

الاتفاقية التي عقدتها معه ازابيلا ملكة بيروت عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) ومدتها عشر سنوات، فقد ذكر القلقشندي[٤٧] أن هذه الملكة قد وثقت ببيبرس إلى درجة أنها كانت عندما ترغب في السفر إلى جهة ما، تذهب بنفسها إلى بيبرس وتستودعه بلادها، وعندما خطفها الملك هيو الثالث ملك جزيرة قبرص، قام بيبرس بتخليصها عن طريق توجيه تهديدات لهيو، لهذا اتخذت لنفسها حرساً من المماليك حتى مات عام ٦٧٢هـ (١٢٧٤م)، وقلدتها في هذه السياسة أختها وخليفتها حتى استولى المسلمون على بيروت[٤٨].

أما عن موقف السلطان الظاهر بيبرس تجاه العدو الآخر والحليف الدائم لكل من الصليبيين والمغول وأعني به مملكة أرمينيا الصغرى[٤٩] فقد وجه إليها في عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) قلاوون. بقصد تأديب ملكها على تحالفه مع التتار زمن هولاكو و أبقاخان، وتشجيعه لهما على مهاجمة الشام ومصر، والمساهمة في دعمهما بفرض حصار اقتصادي على دولة المماليك، حيث منع عنها مادتي الخشب والحديد[٥٠]. وقامت قوات قلاوون بهزيمة الأرمن قرب دراساك، ودمرت مدن سيس وأطنه وطرسوس والمصيصة وألحقت بها دمارا هائلا في هجومها الذي استغرق عشرين يوما فقط. وقتل قلاوون أحد أبناء ملك أرمينيا وأسر الابن الثاني، في حين كان الملك نفسه - هيثوم الأول - في زيارة للمغول في بلاد فارس. ولم يوافق بيبرس على اطلاق أسيره إلا مقابل تنازل والده عن عدة مواقع استراتيجية ودفع جزية سنوية[٥١].

ومنذ ذلك الحين أصبحت أرمينية الصغرى ضعيفة لم تسبب للمسلمين آية مشكلة، إلا مرة واحدة في عهد السلطان محمد قلاوون حيث أخضعها نهائيا[٥٢].

سقوط أنطاكية بيد السلطان بيبرس:

وجه بيبرس همه إلى أنطاكيـة أقوى الإمـارات الصليبية المتبقيـة والمتحالفـة مع التتار، فبـدأ بمهاجمة البـلاد المحيطة بها، حيث استـولى على عدة قـلاع تقع إلى الشمال منها(٥٣) ثم وجـه همه نحوها بجيشـه المؤلف مـن ثلاث فرق، استـولت الفرقة الأولى منها على ميناء السويدية، لتقطع اتصال أنطاكيا بالبحر، ورابطت الفرقة الثانية في ممرات قيليقية لتمنع وصول الإمدادات من أرمينية الصغرى، ثم هاجـم المدينة بـالفرقـة الثالثـة، واستمرت الهجمات، ودام الحصـار ثم جـرت مفاوضـات لتسليمها صلحا، ولكن أهلهـا رفضوا ذلك، فاستطـاع أن يفتحها عنوة، في رمضان عام ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) فأحرقها(٥٤)، وقتل من أهلهـا خلقا كثيرا(٥٥)، وأسر أعدادا هائلة منهم، و غنم مالا يحصى من الأموال بلغ من كثرتها (أن قسمت الأموال بالطـاسات)وبلغ الأسرى من الكثرة حتى أنـه (لم يبق غلام إلا وله غلام، وبيع الصغير باثني عشر درهم)(٥٦). فكان سقوطها معلما خطيرا على طريق نهاية الصليبيين بالشام لأنها كانـت بحكم موقعها الجغرافي سندا لهم منـذ بـدايـة الحروب الصليبيـة، وسبـب سقـوطهـا ذعـرا شـديـدا في صفـوف الصليبيين، حتـى أرسل ملـك أرمينية الصغـرى يعرض على بيبرس أن يسلمـه بلاده مقابل الاستمرار في مهادنته(٥٧).

ولم يكتف بيبرس بهذا النصر العظيم، فـوجه همه نحو جزيـرة قبرص ليؤدب ملكها هيو الثالث، الذي كان دائم التهديد للسفن الإسلامية في البحر الأبيض المتوسـط، ودائم المساعـدة للصليبيين، فوجه نحـوه حملة بحـرية عـام ٦٦٨هـ (١٢٧٠م)(٥٨)، ولكنهـا فشلـت بسبـب العواصـف التـي حطمـت معظـم سفنه(٥٩) فنجا بذلك ملكها من عقاب بيبرس.

لم يثن هذا الفشل بيبرس عن مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، فاستولى في عام ٦٦٩ (١٢٧٠م) على صافيتا وحصن الأكراد، وحصن عكار، والقرين، ثم واصل مهاجمة إمارة طرابلس، فاستولى على ما حولها من حصون وممرات وكاد أن يفتحها، ولكنه عندما علم بخروج الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا خشي أن تكون وجهتها مصر، فسارع إليها للاستعداد لمواجهة هذا الخطر[٦٠]، وعندما تيقن من وجهة تلك الحملة إلى تونس عاد (١٢٧١م) لمواصلة هجومه على طرابلس فطلب أميرها بوهيمند السادس الصلح، ووصلت الأخبار بوصول الأمير أدوارد[٦١] الأول إلى عكا، فظن أنها مقدمة لحملة صليبية كبرى فاستجاب بيبرس لطلب بوهيمند، وعقد معه صلحا مدته عشر سنوات[٦٢]. وتبعتها مملكة بيت المقدس فعقدت صلحا مماثلا، مما مكن بيبرس من التفرغ لقتال المغول والإسماعيلية، فوجه همه نحو الإسماعيلية الذين كانوا يعادون المسلمين ويتآمرون مع الصليبيين ضدهم، ويغتالون كبار المجاهدين من قادتهم كما تعاونوا مع المغول، ودفعوا لهم الأتاوات[٦٣]، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعراني وهدم حصونهم وقضى عليهم، وكانوا يسمون بالحشاشين[٦٤].

جهاد السلطان الناصر قلاوون ضد الصليبيين:

لم يكد السلطان قلاوون يعتلي عرش مصر، حتى تمرد عليه نائب الشام، الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فأعلن نفسه ملكا باسم الملك الكامل، واستولى على عدة حصون من حصون الشام، منها قلعة صهيون، ثم اتصل بأعداء المسلمين من مغول وصليبيين[٦٥] محاولاً الاستعانة بهم ضد قلاوون، مما جعل أهل الشام ينفرون منه، وينفضون من حوله، ويتخلون عن نصرته،

واستغل المغول هذه الفرصة، فاحتلوا بعض حصون الشام ٧٦٩هـ (١٢٨٠م)، واستولوا بقيادة أبغا على مدينة حلب، التي أحرقوا مساجدها ومدارسها وقتلوا معظم أهلها[٦٦]. ولم يضع الصليبيون هذه الفرصة، فقاموا بمحاولة لاسترداد حصن الأكراد، ولكنهم فشلو[٦٧]. وعندما علم قلاوون بهذا التحالف وهذه الجرائم خرج من مصر متوجها نحو الشام للقضاء على هذا الخطر، ولكنه لم يكد يغادر أرض مصر، حتى تعرض لمؤامرة داخلية جاءت من قبل بعض المماليك الذين يدعون بالمماليك الظاهرية[٦٨]. حيث تآمروا عليه بالاتفاق سرا مع الصليبيين. فواجه الموقف بسرعة وقبض عليهم فأعدم بعضهم وسجن البعض الآخر وأعاد النظام إلى صفوف جيشه[٦٩].

فر المغول عندما علموا بوصول جيش الناصر قلاوون إلى غزة في طريقه لمحاربتهم[٧٠]، فأخلوا مدينة حلب والحصون التي كانت قد احتلوها وأسرعوا عائدين نحو العراق ولم يصمد الأمير سنقر بدوره أمام جيش قلاوون وفر هاربا إلى المغول محاولا مرة أخرى حثهم على غزو مصر[٧١].

عندئذ رأى السلطان قلاوون أن أخطر هؤلاء الأطراف الثلاثة المتآمرين هم المغول، فعقد صلحا مع الصليبيين من داوية واسبتارية وبوهمند السابع أمير طرابلس مدته عشر سنوات، وذلك عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) وعفا عن الأمير سنقر الأشقر وعينه حاكما على إقليم أنطاكية[٧٢]، واتفق مع الصليبيين من عكا أن يكونوا على الحياد.

وبهذا تفرغ لمقارعة المغول الذين عاودوا التوجه نحو الشام بقيادة أبغا، يؤازرهم حليفهم ليوم الثالث ملك أرمينيا الصغرى، فالتقى بهم قلاوون عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) في حمص وهزمهم بعد أن (هلك منهم خلق كثير)[٧٣].

وهنا قرر الناصر أن ينتقم من الصليبيين مستغلا نصره على المغول فهاجم عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) حصن المرقب[٧٤]، ولما يمض على صلحه معهم سوى أربع سنوات، ففتح ذلك الحصن الهام الذي كان فتحه خسارة كبرى للصليبيين لأنه من أهم حصونهم[٧٥] ثم أتبع ذلك بالاستيلاء على اللاذقية عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) والتي كانت آخر أملاك إمارة أنطاكية المتبقية بين الصليبيين.

بعد ذلك جاء دور طرابلس، وكانت حصينة، وقد مات أميرها بوهيمند السابع دون وريث، قرب النزاع بين الطامعين في إمارتها، حتى استعان بعضهم بالسلطان قلاوون[٧٦]، فاستغل هذه الفرصة وهاجمها في جيش لجب يضم أربعين ألفا من الفرسان وأكثر من مائة ألف من الرجال، وفتحها سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م)[٧٧]. ثم استولى على بيروت وجبله وبهذا لم يبق بيد الصليبيين سوى صور وصيدا وعتليت وعكا التي كانت مركز مملكة بيت المقدس بعد سقوط القدس.

ورأى قلاوون أن يؤجل إلى حين الاستيلاء على بقية البلاد من أيدي الصليبيين، فوافق على تجديد الهدنة معهم لمدة عشر سنوات[٧٨] وتوجه إلى دمشق ولكن جموعاً صليبية متحمسة وصلت من إيطاليا ٨٦٩هـ (١٢٩٠م) ونزلت في عكا، وأخذت في الاعتداء على المسلمين المتواجدين خارجها، مما أغضب السلطان قلاوون ودفعه لأن يقسم على الانتقام منهم، وأخذ في الاستعداد لهذا الغرض، ولكنه توفي فجأة وهو في الطريق لتحقيقه[٧٩] عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م).

وقد وصف ابن العمري قلاوون رحمه الله بقوله: «كان رجلاً مهيباً شجاعا، فتح الفتوحات الجليلة، مثل المرقب وطرابلس، التي لم يجسر أحد من الملوك

مثل صلاح الدين وغيره على التعرض لها لحصانتها، وكسر جيش التتار في حمص، وكانوا في ثمانين ألفا»[٨٠].

وقد خلف الأشرف خليل بن قلاوون أباه في السلطنة، لأن أخاه الملك الصالح علي بن قلاوون الذي أقامه أبوه ملكا في حياته قد مات في سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) بعد أن بقي ثماني سنوات سلطاناً في حياة أبيه.

ولم يكن الأشرف خليل محبوبا من الأمراء، لأنه كان قاسيا وغير متمسك بحسن الخلق[٨١]، حتى اتهم بدس السم لأخيه علي، وقد استلم الحكم فور وفاة أبيه، وقضى على الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة الذي تآمر عليه، ثم استعد للخروج إلى الشام، ورغم محاولة الصليبيين ثنيه على ذلك بأن أرسلوا إليه (يسألونه العفو) فإنه (لم يقبل منهم ما اعتذروا به)[٨٢].

فتوجه نحو عكا، واجتمعت إليه جيوش مصر والشام سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م)، فقام بمحاصرتها مدة أربعة وأربعين يوما، ورماها بالمنجنيق، حتى فتحها في جمادى الأولى من عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها حاميتها، ورغم إمدادات قبرص لها[٨٣]، حيث إن الصليبيين كانوا يعلمون أنها آخر أمل لهم في البقاء في الشام، وقد فر بعض سكانها إلى عرض البحر المتوسط وتكدسوا في السفن التي غرق بعضها لكثرة من كانوا على ظهرها[٨٤].

وبعد ذلك قام الأشرف خليل بالاستيلاء بسهولة على بقية ما تبقى بأيدي الصليبيين مثل صور وحيفا اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطرتا للتسليم فنجتا بذلك من التخريب[٨٥]، ثم استولى الأشرف خليل على عتليت وصيدا وانطرسوس[٨٦]، وبهذا تم القضاء نهائيا على الوجود الصليبي في الشام، وإن

كان الصليبيون في جزيرة ارواد [٨٧] المقابلة للساحل الشرقي قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد قلاوون، فجهز أسطولا ووجهه نحو هذه الجزيرة بعد أن ضم إليه جيش طرابلس ففتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة [٨٨] وذلك عام ٧٠٢هـ (١٣٠٢م).

وهكذا بالقضاء على الصليبيين في عام ٦٩٠هـ (١٢٩١ وبزوال الخطر المغولي عن الشام ومصر، في عهد أبي سعيد ايلخان المغول عام ٧١٧هـ (١٣١٧م)، أصبح لدولة المماليك شأن عظيم في السياسة الدولية في ذلك الزمن، وذلك في عهد سلطانها الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة.

فقد أدرك الصليبيون في أوروبا فشل محاولاتهم المتلاحقة للعدوان على بلاد الإسلام في الشام ومصر، ورأوا زوال آخر إماراتهم بعد قرنين من تأسيسها، رغم ما بذل في سبيل إقامتها من جهود مادية ومعنوية، وما سفك في سبيلها من دماء، كما لمسوا فتور الحماس الصليبي، بعد فشل حملتي لويس التاسع السابعة والثامنة على مصر وتونس، لذلك اضطروا إلى تقبيل اليد التي حاولوا قطعها، فلجؤوا إلى الدبلوماسية والمراسلات والسفراء والهدايا، علهم يحققون عن طريقها ما فشلوا في تحقيقه بالتعصب والسيف.

انهال سفراء الدول الأوروبية على بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، محملين بالهدايا والرسائل التي تلح في طلب الصداقة والموادعة، وتوثيق عرى الصداقة، في حين كان غرضها الأساسي هو استدرار عطف الناصر على النصارى في دولته، سواء من كان منهم من الأقباط في مصر أو من أهل الشام، فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون في عام ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) رسالة إلى

الناصر طالبا منه أن يعامل نصارى الشرق معاملة عادلة، مقابل معاملة مماثلة للمسلمين، فرد عليه الناصر مجيبا طلبه[٨٩].

وفي نفس السنة أرسل شارل الرابع ملك فرنسا رسالة مماثلة لنفس الغرض، فرد عليه الناصر أيضا مجيبا طلبه[٩٠]، كما أرسل إليه إمبراطور بيزنطة سفراء محملين بالهدايا راجيا إياه معاملة النصارى الملكانيين لديه بالرعاية والعدل[٩١]، فقبل الناصر طلبه، وعقد معه حلفا لصد الأتراك العثمانيين[٩٢].

وبلغت العلاقات بين الناصر ويعقوب ملك ارغونة شأوا كبيرا بسبب المراسلات بينهما ما بين سنتي ٧٠٣ - ٧٢٨هـ (١٣٠٣ - ١٣٢٧م)، التي كان هدفها إيجاد علاقة صداقة بينهما، والحصول على ميزات تجارية لأرغونة في مصر، وتسهيل الحج للأراضي المقدسة، وإطلاق سراح النصارى المسجونين في مصر، وضمان حسن معاملة الأقباط والنصارى عامة في الشرق[٩٣].

وقد رأى الناصر محمد الذي كان ملكا مستنيرا محنكا، يميل إلى المسالمة، رأى في ذلك فرصة لتوثيق العلاقات بين دولته والآخرين في الشرق والغرب[٩٤]، تحقق بها مصالح مشتركة وخاصة حماية المسلمين في أسبانيا التي كانت خاضعة لحاكم أرغونة، بالإضافة إلى المصالح التجارية والعسكرية في الوقوف أمام الخطر التركي العثماني.

ولا أدل على أهمية دولة المماليك الإسلامية في هذا العصر من أن يصبح سلاطينها محط أنظار السفراء والرسل من مغول ويمنيين وأرمن ونوبيين، حتى وصفهم المقريزي بقوله[٩٥]: وفيه (٢٥ محرم ٧٢٥هـ) إجتمع بمصر من رسل الملوك ما لم يجتمع منهم في الدولة

التركية، وهم رسل اليمن ورسل صاحب اسطنبول ورسل الأشكري[96] ورسل متملك سيس، ورسل أبي سعيد (ملك التتار)، ورسل ماردين، ورسل ابن قرمان، ورسل متملك النوبة، وكلهم يبذلون الطاعة».

إلا أن هذه المكانة قد ضعفت بموت السلطان الناصر محمد فسبحان مغير الأحوال[97].

المصادر والمراجع

١) ابن إياس، ٩٣٠هـ (١٥٢٣م) محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور (كتاب تاريخ مصر) ٣ أجزاء، بولاق ١٣٧٠هـ.

٢) بيبرس الدوادار، ٧٢٥هـ (١٣٢٥م)، الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء العاشر، مكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ، تصوير شمسي.

٣) جوزيف نسيم جوزيف:

أ) العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م.

ب) العدوان الصليبي على الشام، دار النهضة، بيروت ١٩٠٠م.

٤) الخزرجي، علي بن حسن (القرن الثامن الهجري)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، (جزءان).

٥) ابن خلدون، ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) عبد الرحمن بن أحمد:

أ) مقدمة ابن خلدون، بيروت، ١٩٠٠م.

ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٨ أجزاء، القاهرة، ١٩٨٤م.

٦) رشيد الدين، فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، تاريخ المغول، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، ١٩٦٠م.

٧) ابن شاكر، ٨٧٣هـ (١٤٦٩م)، فخرس الدين محمد: فوات الوفيات، بولاق، ١٢٩٩م.

٨) أبو الفداء، ٧٣٢هـ (١٣٣١م)، إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة. المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، ١٢٨٦هـ.

٩) ابن الفرات المصري ٨٠٧هـ (١٤٠٥م)، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات، المعروف باسم: الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك. تحقيق قسطنطين زريق والمستشرق ليفي دلافيدا.

١٠) ابن أبي الفضائل، ٦٧٢هـ (١٢٧٣م)، مفضل: النهج السديد والدر المفيد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جزءان. حققه بلوشيه، باريس ١٩١٢م.

١١) القلقشندي، ٨٢١هـ (١٤٧١م)، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزءا، القاهرة، ١٩١٣ ـ ١٩١٩م.

١٢) عاشور، سعيد عبد الفتاح:

أ) الحركة الصليبية، جزءان، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٦٣م.

ب) قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٧م.

١٣) العبادي، أحمد مختار، دكتور: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

١٤) عبد المنعم ماجد: دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ).

١٥) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

(١٦) العيني، ٨٥٥هـ (١٤٥٢م)، بدر الدين أبو محمد بن أحمد: عقد الجمان في تاريخ

أهل الزمان، ٢٣ جزءا في ٦٩ مجلدا، الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ ـ ٦٧٣ هـ (مخطوطة بمكتبة دار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤).

١٧) أبو المحاسن، ٨٧٤هـ (١٤٩٦م)، جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى:

أ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩ أجزاء، دار الكتب، ١٩٣٩م.

ب) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٣ أجزاء، مخطوطة بدار الكتب برقم ١١١٣.

١٨) المقريزي، ٨٤٥هـ (١٤٤١م) تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٩م.

١٩) يوسف دريان:

أ) لباب البراهين الجلية عن حقيقة أمر الطائفة المارونية منذ أوائل القرن الخامس إلى أوائل القرن الثالث عشر من القرون المسيحية. (تاريخ الطبع غير معلوم).

ب) نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر حتى الآن. القاهرة، مطبعة الأخبار، ١٩١٦م.

المراجع الأجنبية

1) Atiya: A.S.
a) Egypt and Aragon
b) The Crusades in the Later middle Ages (London 1983).
2) Encyclopidia of Islam
3) Encyclopidia of Religion.
4) Hautecoeur wiet : Les Mosquees de Caire.
5) Hitti , p.k,: The History of the Arabs, (London 1940).
6) Joinville, jean sire: de History of St. Louis tr, Jean Evans.
7) King : The Knights of Hospitallers in the Holy land (London, 1931)
8) Lane poole, st. The History of Egypt in the Middle Ages, (London 1957).
9) Rucniman, s.A History of the Crusades. (Cambridge, 1957).
10) Stevenson. W.: The Crusades in the East, (Beirut, 1968).

الهوامش

(١) انظر حول سيرة لويس التاسع «العدوان الصليبي على مصر» للدكتور جوزيف نسيم، دار النهضة العربية، ص ٣٣ وما بعدها.

(٢) د. علي إبراهيم حسن، «تاريخ المماليك البحرية» ص ٢٣، ٢٤ مكتبة. النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م، ابن منظور «لسان العرب» كلمة (ملك).

(٣) Encyclopidia of Islam : Art Mamluk, 13, p 430

وتعني كلمة «مملوك» ما يملك بقصد تربيته والاستعانة به كجندي أو قائد، على عكس لفظ (العبد) الذي يعني (الخادم) أو العبد الأسود) فالعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع. كما أن العبد قد يعني الأسود بينما قد يكون المملوك أبيض. انظر عبد المنعم ماجد «سلاطين دولة المماليك ورسومهم في مصر» ١/ ١١، مكتبة الانجلو.

(٤) المولى والولي بمعنى واحد في كلام العرب، حيث تدل كلمة مولى على عدة معان، فالمولى هو الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق. انظر: لسان العرب ٥/ ٤٠٩، القاموس المحيط ٤/ ٢٩٤، ابن خلدون، عبد الرحمن بن أحمد ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦، بيروت ١٩٠٠م.

(٥) حض الإسلام على تحرير الأرقاء، وجعل ذلك من أعظم الصدقات، وكفارة للظهار، والأيمان، والقتل الخطأ، وغير ذلك من الذنوب الكبيرة. قال تعالى «وما لإدراك ما العقبة، فك رقبة» سورة البلد، آية ١١ ـ ١٢.

(٦) عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المملوكي في مصر والشام، ص ٢٠٣.

(٧) نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، ولكن الدكتور أحمد مختار العبادي، في كتابه «قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام» ص ٩٧ يرى أن هذه النسبة غير صحيحة، وأن أول من شك في صحتها الأستاذ محمد مصطفيزيادة في بحثه المنشور بمجلة كلية آداب القاهرة، المجلد الرابع سنة ١٩٣٦م بعنوان «بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك» وإن مما يؤيد عدم صحة هذه النسبة إلى بحر النيل، أن المؤرخين المعاصرين للصالح أيوب أمثال ابن واصل، وأبي شامة، لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة (بحرية)، وأن المتأخرين كالمقريزي وأبي المحاسن هم الذين أوردوا هذه التسمية. هذا بالإضافة إلى أن الفاطميين قد استعملوا هذه التسمية قبل الملك الصالح فكانوا يطلقون على قسم من جنسهم اسم (الغز البحرية). أبو

المحاسن ٨٧٤هـ (١٤٦٥م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، ١٣ جزءا، القاهرة ١٩٤٣: ٤/ ٩٠. كما أن جد الملك الصالح وهو السلطان العادل الأول كانت له فرقة مماليك سماها (البحرية العادلية)د. محمد زيادة، المرجع السابق. وذكر الخزرجي، علي بن الحسن (القرن الثامن الهجري) في «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» جزءان: ١/ ٨٢، أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) كان له مماليك بحرية رغم بعد اليمن عن نهر النيل.

والأغلب أن هذه التسمية جاءت من أنهم جلبوا من وراء البحار، حيث ذكر جونفيل ـ الذي حارب جند المماليك في حملة لويس التاسع وأسر ـ أنهم سموا بحرية أو رجال ما وراء البحر).

.(Joinville, Jean sir, de History of st. Louis. Jr. Joan Evans, P.8y)

Hautecocur et wiet: Les Mosquees de Caire . pp. 46 - 47

(٩) ابن شاكر الكتبي، فخر الدين محمد بن أحمد ٨٧٣هـ (١٤٦٩م) «فوات الوفيات» بولاق ١٢٩٩هـ/٢/ ١٣٤.

(١٠) ابن الفرات المصري، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ٨٠٧هـ (١٤٠٥م)، تراجم الخلفاء والملوك، ٩ أجزاء، من ٥٠١ ـ ٧٩٩، تحقيق قسطنطين زريق والمستشرق ليفي دلافيرا.

(١١) شجر الدر، أو شجرة الدر، أول سلطانة لمصر من غير الأيوبيين، وأول ملكة مسلمة ـ إذا استثنينا رضية الدين سلطانة دلهي (١٢٣٦ ـ ١٢٤٠م) ـ كانت شجر الدر مملوكة أرمينية الأصل، ذكية جميلة، أهداها الخليفة العباسي المستعصم إلى نجم الدين أيوب، فأنجبت منه ابنا إسمه خليل، توفي صغيرا، وأصبحت أم ولده، فأحبها ورافقته في رحلته إلى المشرق، وفي سجنه عندما بسه الملك الناصر داود في الكرك سنة ٦٣٧هـ. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٦/ ٩١، وقد عتقها الملك الصالح وتزوجها عندما أصبح سلطانا

(١٢) المقريزي، السلوك، ١/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

(١٣) أبو الفداء، المختصر، ٣/ ١٩٢.

(١٤) أبو الفداء، المختصر ٣/ ٢٠٨، المقريزي، الخطط ٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١

(١٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٦٧.

(١٦) انظر قائمة سلاطين دولة المماليك البحرية، الملحقة بهذا البحث.

(١٧) سموا بالبرجية لأن غالبية سلاطينهم من المماليك الذين كانوا يقيمون في برج القلعة على جبل المقطم. وأبرزهم من بلاد الشركس (القوقاز بجوار بحر قزوين) وهم من الترك أيضا. وقد سقطت دولتهم على يد العثمانيين، وظلت بقاياهم تشارك في حكم مصر مع العثمانيين حتى قضى عليهم محمد علي باشا. (عبد المنعم ماجد، دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر: ١/ ٢٥ مكتبة الأنجلو).

(١٨) حتي، فيليب، تاريخ العرب: ص ٢٨٩

(١٩) انظر جوزيف نسيم، العدوان الصليبي بلاد الشام، ص: ١٧٧ ـ ١٨٧، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م

(٢٠) العيني: عقد الجمان: ١٨ قسم ٢ لوحة ٣٤٤. وكذلك عقد الجمان (مجموعة الحروب الصليبية حـ٢ قسم ١ ص ٢١٥، انظر كذلك: ابن كثير، البداية والنهاية: ١٣/ ١٨٤.

(٢١) انظر د. جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: ١٨٢.

(٢٢) المقريزي، السلوك: حـ١ قسم ٢ ص ٣٨١، ابن خلدون: العبر: ٥/ ٣٧٥.

(٢٣) د. أحمد العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص ٢٢١، دار النهضة، بيروت، ١٩٦٩م.

(٢٤) د. جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص: ٢٩٠.

(٢٥) مدينة بساحل الشام بينها وبين الرملة ٣٢ م يلا، كانت شديدة المناعة لها قلعة حصينة، وسور وباب حديد. (أبو الفداء، تقويم البلدان ص: ٢٣٩).

(٢٦) لم يبق منها اليوم سوى آثار قليلة، ومنها بعض المدافن بسفح جبل الكرمل، وحيفا، الموجودة حاليا القرن ١٨، وتقع في شمال حيفا القديمة لكيلو مترين (الكرمل: حيفا ص ٦٩ ـ ٧١).

(٢٧) تقع يافا على مسافة ٦ أميال شمال غرب مدينة الرملة، وهي ميناء ترسو فيه السفن الواردة إلى فلسطين والمنطلقة منها. (أبو الفداء، تقويم البلدان ص ٢٣٩) (القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/ ١٠٠ قال عنها البشاري المقدسي:

«خزانة فلسطين، وفرضة الرملة، عليها حصن منيع بأبواب محددة، وباب البحر كله حديد «(أحسن التقاسيم ص: ١٧٤).

(٢٨) «مدينة بساحل البحر الرومي ذات حصن حصين «(القلقشندي، صبح الأعشى ٤/ ١١١)

(٢٩) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على الشام، ص: ٢٩٩.

(٣٠) كان الصليبيون يطلقون هذا الاسم على الجماعات الشامية النصرانية، من إغريق، ونساطرة، وأرمن، وموازنة، وغيرهم. (جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على الشام ص ٣١٢). وانظر:

(٣١) ينسبون إلى القديس مارون الذي ظهر في جهات أفامية في أواخر القرن الرابع الميلادي، وأقيم بعد موته دير في أوائل الخامس على ضفاف العاصي قرب أفامية. وقد تواجد أكثر الموارنة في بلاد حمص وجبل لبنان، وكانوا متمسكين بمذهب الطبيعتين المقر في مجمع خلقدونية عام ٤٥١م مما جعلهم مقربين إلى اللاتين بعكس الأقباط والأرثوذكس. (يوسف دربان: نبذة تاريخية أصل الطائفة المارونية، القاهرة، ١٩١٦، ص: ٤٢، ٤٣، ٤٥).

(٣٢) يوسف دربان، لباب البراهين الجلية عن حقيقة الطائفة المارونية، القاهرة، ١٩١٦ ص: ٥٩ ـ ٦٠.

(٣٣) يوسف دربان، أصل الطائفة المارونية، ص: ٥٦.

(٣٤) Joinville (ed wailly) p.334 - 336.

(٣٥) أحمد العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م، ص: ٢٢٢.

(٣٦) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص: ١٩٢، المقريزي، السلوك: ١/ ٥٨٤_٦٠٠.

(٣٧) بيبرس الدوادار، زبدة الفكر: ٩/ ٢٦٢.

- Lane -poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1945) . p. 466.

(٣٨) المقريزي، السلوك: ١/ ٤٦٥.

(٣٩) المقريزي: السلوك: ١/ ٤٨٥_٤٨٦.

(٤٠) المقريزي: السلوك، حوادث سنة: ٦٦١، ٦٦٢.

(٤١) ارسون مدينة ساحلية علىبحر الروم، بها قلعة وعليها سور، كانت في زمن أبي الفداء خرابا (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص: ٢٣٩).

(٤٢) المقريزي: السلوك: ١/ ٥٢٩«ولا يعتبر هذا غدراً منه لأن هؤلاء الفرسان جبلوا على الخيانة والغدر طالما غدروا بالمسلمين».

(٤٣) قيل إنها فتحت صلحا، ثم قتل بيبرس من أهلها وخرب قلعها عبارة تدل على زهوة النصر جاء فيها: «عماد الدين الذي حول الكنائس إلى مساجد، ورنين النواقي أصوات المؤذنين، وقراءة الإنجيل إلى ترتيل القرآن». (علي إبراهيم حسن: ص: ١٨٠).

(٤٤) حصون تحيط بمدينة بانياس التي كان بها قلعة الصبيبة، ومن هذه المدن والحصون شقيف ارنون وشقيف تيرون، والجليل وصفد والناصرة وصفورية. (أبو الفداء: تقويم البلدان: ص: ٣٤٥).

(٤٥) الرملة مدينة بفلسطين بناها سليمان بن عبد الملك، بينها وبين القدس يوم واحد. القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/ ٩٩.

العيني، بيدر الدين أبو محمد بن أحمد ٨٥٥هـ (١٤٥٢م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الجزء الخامس بحوادث سنة ٦٥٦_٦٧٣. مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم: ١٥٨٤.

المقريزي، السلوك: ١/ ٥٥٠، وذكر ص: ٥٤٤_٥٤٧ إن الاستيلاء على يافا كان سنة ٦٦٦هـ.

(٤٦) القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/ ٤٤_٥١. أبو المحاسن: النجوم: ٧/ ١٥٠.

(٤٧) القلقشندي، نفسه: ٤/ ٣٩

(٤٨) يذكر رنسيمان

Runciman, A History of the Crusades. cambridge 1957) p.344 - 343

أن بيروت سقطت بيد الأشرف خليل عام ١٢٩١م (٦٩٠هـ)، بينما يذكر المقريزي أنها سقطت

بيد الناصر قلاوون سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) (المقريزي: السلوك: ١/ ٦٤٦-٦٤٧).

(٤٩) سميت أرمينية الصغرى تمييزا عن أرمينية القديمة الممتدة جنوب القوقاز والبحر الأسود، أي ما بين بلاد فارس والعراق شرقا وبلاد الروم غربا، وتقع أرمينيا الصغرى في جنوب الأناضول وقيليقية من الرها شرقا إلى أطنه غربا وعاصمتها سيس. (أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ص: ٣٣٤) وهي اليوم مقسمة إلى منطقتين، إحداهما مع روسيا باسم جمهورية أرمينيا الاشتراكية والأخرى تركية مكونة من عدة ولايات أهمها ولاية أرضروم. (سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ٢/ ١١٤٨).

(٥٠) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية: ٢/ ١١٤٧، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٧م.

(٥١) أبو المحاسن، النجوم: ٧/ ١٤، المقريزي، السلوك: ١/ ٥٥٢.

(٥٢) المقريزي: السلوك: ٣/ ٥٥٢

(٥٣) Stevenson: The Crusades. p. 339

(٥٤) المقريزي: السلوك: ١/ ٥٤٤-٥٤٧.

(٥٥) قيل إنه قتل من أهلها مائة ألف، ومن جنود قلعتها ثمانية آلاف

- Lane-poole, Egypt in the middle Ages p. 497.

(٥٦) المقريزي، السلوك: ١/ ٥٦٨.

- Runciman, Op. Cit. p 344 - 345

- Lane-poole, The History of Egypt in the middle Ages p. 497.

(٥٧) وتتبين استهانة بيبرس بالصليبيين من الرسالة التي كتبها لأمير أنطاكيا بوهيمند السادس الذي كان لدى سقوط مدينته يقيم في إمارته الثانية طرابلس (أبو المحاسن، النجوم: ٧/ ١٤٧).

(٥٨) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص: ٤٧-٤٨.

(٥٩) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦٩هـ.

(٦٠) السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص: ٢٦٩.

(٦١) أصبح ملك إنجلترا فيما بعد، كان معه حوالي ١٠٠٠ محارب، جاء البلاد بناء على اتفاق مع أبغاخان المغولي على غزو مصر والشام، ولكن انشغال أبغا بمحاربة مغول التركستان حال دون ذلك، فعاد إدوارد بعد أن طعنه أحدهم بسكين، وبعد أن عقد هدنة مع بيبرس مدتها عشر سنوات (سعيد عاشور، الحروب الصليبية: ص ١١٥٩).

(٦٢) أثناء المفاوضات اندس بيبرس بين أعضاء وفده إلى بوهيمند كخادم ليتمكن من الاطلاع على حصون طرابلس (المقريزي: السلوك: ١/ ٥٩٤).

(٦٣) السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص: ٢٦٩.

(٦٤) الحشاشون والحشيشية، يقصد بهم الفداوية لاشتهارهم بتناول المخدرات المعروفة بالحشيش، وقيل

إنه ربما أطلق عليهم هذا الاسم لكثرة اغتيالهم الأمراء من الحش بمعنى القطع وبذلك تكون التسمية بعيدة عن موضوع الحشيش المخدر.

- Encyclopidia of Religion, Art Assansins

وبروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية: ٢/ ١٣٨ .

(٦٥) أبو الفداء، المختصر، حوادث سنة: ٦٧٩.

(٦٦) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٩٩.

- King: The Knights Hospitalers in the Holy land. (London 1931) p. 484.

(٦٨) نسبه إلى الظاهر بيبرس.

(٦٩) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد: : ٢/ ٣٢٢. وذكر ابن إياس ٩٣٠هـ (١٥٢٣م)، أبو البركات محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ثلاثة أجزاء، بولاق، ١٣١٢هـ، أن هذه الحادثة من قبل المماليك الظاهرية كانت سببا لاقدام الناصر قلاوون على إنشاء المماليك البرجية.

(٧٠) أبو المحاسن، النجوم: ٧/ ٢٩٩.

(٧١) المقريزي، السلوك: ١/ ٦٧٦

(٧٢) النويري، نهاية الأرب: جـ ٢٩ ورقة ٢٧٠.

٧٣) رشيد الدين الهمداني (١٣١٨هـ)، جامع التواريخ: ٢/ ٨٣.

(٧٤) المرقب بالفتح ثم السكون وقاف وباء بلد وقلعة حصينة على ساحل بحر الشام. معجم البلدان. قيل أنشيء الحصن على يد المسلمين سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٣م).

(٧٥) المقريزي، السلوك: ١/ ٦٢٨.

(٧٦) أبو المحاسن، النجوم: ٧/ ٣٢٠-٣٢١.

(٧٧) المقريزي، السلوك: ١/ ٦٤٦-٦٤٧.

(٧٨) سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ٢/ ١١٧٧.

(٧٩) المقريزي، السلوك: ١/ ٧٥٤. - Lane- poole : Op. Cit. p. 481 - 482.

(٨٠) علي إبراهيم، ص: ٦١

(٨١) المقريزي، السلوك: ١/ ٧٩٢-٧٩٣.

(٨٢) المقريزي السلوك: ١/ ٧٦٢.

(٨٣) - Lane - poole : Op. Cit . p. 4 89

(٨٤) أبو المحاسن، النجوم: ٨/ ٦-٧.

(٨٥) المقريزي، السلوك: ١/ ٧٦٥.

(٨٦) سعيد عاشور: الحركة الصليبية. ٢/ ١١٨٣، ١١٨٤.

(٨٧) جزيرة على ساحل بلاد الشام، فتحها المسلمون سنة ٥٤هـ (انظر لفظ ارواد في معجم البلدان).

(٨٨) أبو الفداء، المختصر: ٣/ ٤٣.

(٨٩) Atia: Egypt and Aragon . pp. 54 - 55.

(٩٠) Ibid.

(٩١) Atiya: The Crusades in the later middle Ages. (London, 1938). p. 374.

(٩٢) --Lane-poole, Egypt in the middle Ages p. 801.

(٩٣) انظر إبراهيم حسن: ١٨٥.

(٩٤) علي إبرهيم: ١٨٤ـ١٨٥.

(٩٥) المقريزي، السلوك: ٢/ ١٦٣ـ١٦٤ و ١٥٩.

(٩٦) هو نفسه صاحب اسطنبول إمبراطور الدولة البيزنطية.

(٩٧) أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٣ أجزاء، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ١١١٣: ٣/ ٢٥٢.